الفرق بين التوكُّل والتواكُل

حقيقة التوكُّل من الصعب تعريفها كما تُعَرَّف الأمور الأخر بماهياتها، وإنما يُعْرَف التوكل بآثاره. كما قال العلماء في التيار الكهربائي، وقد قال الإمام الغزالي ـ وهو الفيلسوف الصوفي الفقيه الأصولي في حديث التوكل: إنه غامض من حيث العلم. ثم هو شاهد من حيث العمل، ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد، والتثاقل عنها بالكيلة طعن في السنة وقدح في الشرع، والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباب تغيير في وجه العقل وانغماس في غمرة الجهل، وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق مع مقتضى التوحيد والنقل والشرع في غاية الغموض والعسر، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء إلا سماسرة العلماء.

وقد أطال الغزالي في توضيح ذلك، ولكن بعبارة بسيطة يمكن أن أقول: إن التوكُّل هو الإيمان بأن الله سبحانه هو الواحد المتفرد بالخلق، ومنه كل النعم، وإليه المرجع والمصير، مع إظهار مِسْحة هذا الإيمان على السلوك في القول والعمل، وامتثال أمر الله والسير على منهجه الذي أوحى به إلى الرسل.

ولو طبقنا هذا المعنى في طلب الرزق مثلاً فلابد في التوكل من الإيمان بأن السعي والجد في العمل وحده لا يمكن أن يوصل إلى النتيجة إلا بإرادة الله سبحانه، فقد يكون هناك سعي وجد وعمل ولا يكون من وراء ذلك تحقيق ما يريده الإنسان، فلابد من الأمرين: الأخذ في الأسباب ثم تفويض الأمر إلى الله سبحانه وانفراد واحد منهما عن الآخر خطأ. فالأخذ بالأسباب دون التفويض لله يناقض الإيمان، وربما لا يوصل إلى المطلوب، والتفويض لله فقط دون الأخذ بالأسباب. تعطيل لقانون الله وعدم الامتثال لأمره بالسعي والعمل، وهذا ما يعرف بالتواكل.

وعلى ضوء ذلك من يقتصر على الإيمان بقوله تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) (سورة هود : 6) دون تنفيذ لقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) (سورة الملك : 15) يكون مخطئًا ويطلق عليه اسم المتواكل، يوضح ذلك ما حدث أن رجلاً ترك ناقته على باب المسجد النبوي وقال للرسول ـ ﷺ ـ هل أتركها بدون عقل ـ قيد ـ وأتوكل على الله ليحفظها أو أعقلها. أقيدها بالعقال؟ فقال له "قيِّدها وتوكل" رواه ابن خزيمة والطبراني بإسناد جيد.

وقد يوضح هذا أيضًا قول النبي ﷺ . "لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِمَاصًا وتروح بِطانًا" رواه الترمذي وقال: حسن صحيح فالطير تبارح الأعشاش لتطلب رزقها ولا تنتظر وتفتح أفواهها لينزل لها الرزق من السماء وهي راقدة في الأعشاش.

يقول أبو الفتوح الرازي الواعظ المفسر الفارسي المولود بالري في أواخر القرن الخامس الهجري:

توكل على الرحمن في كل حاجة

ولا تتركن الجد في شدة الطلب

ألم تر أن الله قال لمريم

وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزه

جنته ولكن كل شيء له سبب

(مجلة الإخاء العدد 193 في إبريل 1971 م بقلم محمد علي رزم آشين).

والموضوع طويل يراجع في "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالي ج 4 ص 210".